بداية الطباعة العربية في استانبول وبلاد الشام: تطور المحيط الثقافي

(1706 - 1787)

د. وحيد قدورة

منشورات المعهد الأعلى للتوثيق العدد 8

تونس 1985

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الكتاب

لم يبرز فن الطباعة بالأحرف العربية بالمشرق الا بعد قرنين ونصف من ظهوره بأروبا وفي الاثناء حافظ المخطوط العربي على مكانته لدى المتعلمين باعتباره وعاء الكتابة الرئيسي لنقل المعلومات الى ان بادرت الطائفة الارثودكسية بسوريا بتأسيس أول مطبعة عربية وذلك بحلب سنة 1118 هـ / 1706 م ثم تلاها المسلمون سنة 1140 هـ / 1726 م بانشاء مطبعة بالحرف العربي باستانبول وبرزت بعد ذلك مطبعتان مسيحيتان اخريان بجبل لبنان أي بشوير سنة 1147 هـ / 1734 م وبيروت سنة 1165 هـ / 1751 م .

وقد ركزت الدراسة على تحليل الظروف التي أحاطت بنشأة المطبعة العربية بالمشرق وأسباب التأخير الحاصل في ظهورها بالنسبة لاوروبا وتناول البحث بالتحليل أيضا محتوى الكتاب العربي المطبوع وتأثيره على مجرى الحياة الثقافية في القرن الثامن عشر الميلادي .

إن ظهور أربعة مطابع في ظرف نصف قرن يعتبر دليلا واضحا على بروز تغيير جذري في توجهات المجتمع العثماني وتطلعه للدخول في مرحلة جديدة من تاريخه الا وهي مرحلة التجديد الفكري والثقافي التي سيلعب فيها الكتاب المطبوع دورا هاما في التعريف بها ، وما تبني آلة الطباعة الا دليلا على حرص الشرقيين على ايجاد شكل جديد لوعاء الكتابة لنقل وبث الافكار الجديدة التي بدأت تظهر في القرن الثامن عشر بين أوساط المثقفين ورجال النفوذ والتي تتعلق بالتصور الجديد للمجتمع وكيفية النهوض به .

إن معالجة موضوع أسباب التأخير في دخول الطباعة العربية للعالم الاسلامي يأخذ بعدا كبيرا حين نعلم ان المسلمين كانوا على دراية تامة بوجود

هذا الاكتشاف بأروبا منذ القرن الخامس عشر بل قبل ذلك بكثير وذلك فى مهده الاول ببلاد الصين أين اخترعت الاحرف المتحركة منذ القرن الحادى عشر . ويطرح نفس المشكل بالنسبة للمسيحيين العرب الذين كانوا مطلعين على مطابع بقية الاقليات الدينية فى الدولة العثمانية من يهود وارمن ويونانيين الى جانب تقبلهم للكتب العربية المطبوعة بأروبا منذ بداية القرن السادس عشر وهذا عنصر آخر هام يضاف الى بقية عناصر المشكلة .

ولهذا كان من الضرورى البحث عن تحفظات المسلمين والمسيحيين العرب إزاء استعمال فن الطباعة وأسباب اعتراضهم على تعويض المخطوط بالكتاب المطبوع . ولا يمكن فهم كل جوانب الموضوع الا بوضعه فى إطاره التاريخى مع التركيز على الفترة التى سبقت دخول المطبعة العربية للمشرق والتى تعتبر أساسية فى التعرف على تفكير المثقفين فى الدولة العثمانية بخصوص مستقبل الحضارة الاسلامية ، وما الرغبة فى تغيير الادوات الثقافية الا تعبير واضح عن عزيمة الشرقيين فى تبني منهجية جديدة فى العمل الفكرى وأسلوب جديد فى تغيير المجتمع حسب مقتضيات العصر وطريقة متميزة فى تعاملهم مع الغرب ، ذلك أن تبني المطبعة يعتبر تفتح على مكتشفاتها وتقنياتها .

ان استعارة فنون الطباعة كانت فرصة ثمينة للمسلمين للتحاور حول طرق تجديد مجتمعهم على مختلف الاصعدة وايضا لتقييم الرصيد الحضارى الذى وصلوا اليه .وفى خضم هذه المناقشات كانت الاختيارات صعبة نظرا لاختلاف الرؤى ولتناقضاها بالخصوص،حيث برز تياران متنازعان الاول تقليدى محافظ والثانى متجدد متفتح وكانت النزعة الاولى تعارض مبدأ استعمال التقنيات الحديثة الواردة من أروبا باعتبارها من اختراع الكفار وترى،فى ترك الوسائل التقليدية المعتمدة آنذاك بمثابة الاعلان الصارخ عن القطيعة مع الماضى المجيد ولذلك فانها ناهضت بشدة عملية إدخال المكتشفات السليمة الاروبية اذ انها تحمل آراء ونظريات غريبة هدفها غزو المجتمع وتحدي المسلمين فى عقر دارهم .

اما النزعة الاصلاحية فقد كانت تعمل على الدفاع عن المجتمع الاسلامى من زاوية أخرى وذلك بالتفكير فى أسباب الانحطاط وطريقة النهوض به بالاعتماد على التجربة الغربية انطلاقا من استعمال تقنياتها المتطورة وترى فى ذلك النهج الأمثل لتطوير المجتمع والانتقال به الى مرحلة حضارية جديدة.

إن الحوار بين المسلمين بخصوص النهوض بالمجتمع كان فى بدايته فى القرن الثامن عشر وكانت قضية المطبعة من أوائل المشاكل التى طرحت آنذاك

وقد حصل الصراع بين المحافظين والاصلاحيين حول ادخالها وهو فى الآن نفسه يعبر عن خلفية أخرى فى الصراع الحضارى بين المخطوط والكتاب المطبوع بين القديم والحديث وباختصار فهو صراع بين الجمود والتطور .

واذا ما دافع المحافظون عن المخطوط فباعتباره وعاء الكتابة الذى نشر تعاليم الاسلام وايضا لانه كان مخلصا فى نقل القيم الحضارية للمسلمين عبر العصور ، وبالتالى فانه من المجازفة أن يقع ابداله بالكتاب المطبوع لان هذا الوعاء الجديد للمعلومات يأتى من بلاد غير اسلامية وهو محل ريب فضلا من تشويهه الكتابة العربية الجميلة بتعويضها بأحرف معدنية فيفقد الحرف العربى جماله و « قدسيته » باعتباره الرسم الذى كتبت به الآيات القرآنية وأخيرا يعتبر المحافظون ان فن الطباعة سيزاحم مهنة الوراقة وسيحرم بالتالى آلاف النساخين من مورد رزقهم .

أما الاصلاحيون فيرون المخطوط من زاوية أخرى فهم يعيبون عليه عجزه على نقل قيم ومكتسبات الحضارة الاسلامية وعدم قدرته على الاكثار من نسخ المؤلفات العربية التى هى بصدد الانقراض كما أنهم يهاجمون النساخين لاهمالهم وعدم شعورهم بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقهم فى المحافظة على تراث الامة المكتوب فعملهم بطيء وغير جيد اذ يكثرون من الاخطاء ومع ذلك فان أسعار المخطوطات باهضة لا تمكن المسلم المتوسط الحال من اقتنائه وهذا ما ساهم بقسط وافر فى حرمانه من العلم وتسبب بالتالى فى انتشار الأمية فى ربوع العالم الاسلامى .

انه من الضرورى ان نتساءل عند تتبع هذه النقاشات الثرية بين المحافظين والاصلاحيين ان كانت هذه الندوات تمهيدا للتيارات الفكرية الكبرى التى عرفت فى القرن التاسع عشر والتى ساهمت فى ظهور حركة النهضة الادبية العربية خاصة وان الاداة الاساسية فى نقل الآراء والمعلومات كانت الصحافة والكتاب المطبوع ، وهذا لان الباحثين المعاصرين عند دراستهم لحركة النهضة كانوا يقتصرون على تناولها فى فترة وقوعها دون التأمل فى بدايتها وهنا يجدر بنا أن نتساءل ثانية ان كان من المجدى تحديد بداية النهضة العربية مع دخول الطباعة العربية للدولة العثمانية أى فى مطلع القرن الثامن عشر الميلادى .

لهذا كان لزاما علينا عدم عزل ظاهرة المطبعة وعدم الاقتصار على اعتبارها مجرد آلة صناعية بل اقحامها فى الاطار الاجتماعى والتاريخى للشرق الاوسط في

القرن الثامن عشر ووضعها فى خضم التحولات الاجتماعية التى بدأت تغيير العالم الاسلامى ·

إن دراسة هذه الفترة التى عرفت تحولات جذرية هى أساسية لالقاء مزيد من الاضواء على ظهور المجتمع العثمانى الحديث وما القرن الثامن عشر الا نقطة اتصال بين عهدين : عهد جمود وعهد يقظة العالم الاسلامى ·

تنقسم هاته الدراسة الى جزئين ، تناول الجزء الاول تحليل التحضيرات العربية لدخول المطبعة سواء لدى المسلمين وذلك بتتبع أطوار الحوار الذى دار بين المحافظين والاصلاحين ، وأيضا لدى المسيحيين العرب الذين سعوا للحصول على مطبوعات من أروبا وخاصة من كنيسة روما وحاولوا انشاء مطبعة بقوزحية بجبل لبنان سنة 1610 لكنها سرعان ما توقفت .

اما الجزء الثانى فقد خصص لدراسة مراحل تأسيس المطابع العربية ابتداء من تحليل ظروف نشأتها الى الصعوبات الفنية والمادية التى اعترضتها وقد وقع التركيز بعد ذلك وبدرجة كبيرة على دراسة اسهام مختلف المطابع فى التحول الثقافى والاجتماعى من خلال التعرف على محتوى الكتب المطبوعة ووجهتها وتوزيعها وصداها لدى المتعلمين وهذا ما ساعد على التعرف على مفهوم المطبعة لدى الشرقيين من خلال ما عبروا عنه فى كتبهم المطبوعة وعن انشغالاتهم وتصوراتهم لمجتمع المستقبل ·

اما عن النتائج الحاصلة فقد ابرزت الدراسة أولا ومن خلال الارقام ضعف الانتاج المطبعى وهو ما يدل على صعوبة الانطلاقة بالنسبة للمطابع الاربع اذ لم تتوصل مطبعة استانبول الا لطبع عشرين كتابا (فيما بين سنتى 1726 ـ 1787) ، اما حلب فقد اصدرت ثمانية كتب (1706 ـ 1711) وتوصلت شوير الى طبع تسعة عشر كتابا (1734 ـ 1787) ، اما بيروت فلم تصدر سوى كتابين اثنين (1751 ـ 1766) · ثم بينت الدراسة ثانيا اختلاف التصورات لفوائد الطباعة سواء لدى المسلمين أو المسيحيين واختلافات تأثيرها على مجرى الحياة العلمية والادبية ·

فبالنسبة للمسيحيين سخرت المطبعة لخدمة الدين ولترسيخ عقائد كل من المذهبين الارثودكسى والكاثوليكى فقد نظروا للكتاب المطبوع لا باعتباره وسيلة لنشر العلوم الحديثة أو لتوعية فكرية بل بوصفه أداة لبلورة وتنشيط شعورهما الطائفى · فظهرت طبعات عديدة للكتب المقدسة والطقوس المسيحية المختلفة والجدل الدينى وكلها تكرس الصراع الطائفى

بينها والجدل القائم منذ دعوة كنيسة روما للاتحاد مع الكنائس الشرقية فى القرن السادس عشر .

ان مؤسسى مطابع حلب وشوير وبيروت وهم من رجال الدين المسيحى كانوا يشجبون دور المخطوط الذى يتهمونه بنشر الاكاذيب والبدع والتحريفات حول الديانة المسيحية فى الشرق وعلى العكس من ذلك فانهم يرون فى الكتاب المطبوع فاتحة عهد جديد حيث سيقضى على الانشقاق ولكن لكل طائفة تصورها الخاص فى نشر الكتب الدينية السليمة من الاخطاء العقائدية والتشويهات اللغوية التى سببها الناسخون ·

اما عن نتائج ادخال المطبعة لدى المسلمين باستانبول ، فقد كانت مختلفة عما وصل اليه المسيحيون اذ اقتصر ابراهيم متفرقة ومن خلفه على نشر كتب غير دينية خوفا من تحريفها واهتموا اذن بمواضيع أخرى وبما ان المطبعة كانت بايدى رجال الباب العالى فقد سخروها للدعاية السياسية وذلك بنشر كتب عن تاريخ السلاطين العثمانيين ولابراز أمجادهم وأيضا كانت منبرا للاصلاحيين حيث ظهرت كتب تدعو للاصلاح السياسى والعسكرى لاستعادة الامجاد الماضية

اما عن صدى هاته الكتب فى أوساط المتعلمين فى استانبول وبلاد الشام فقد كان ضعيفا وكان الاشعاع باهتا حيث لم تجد اقبالا واسعا نظرا لعدم استعداد المثقفين ، وعددهم قليل ، لقبول هذا الوعاء الجديد للكتابة ونظرا لقلة الكتب العلمية الهامة التى طبعت وأيضا لانعدام سياسة ثقافية واضحة لدى الباب العالى تكون فيها المطابع احدى المؤسسات التى تشع على المجتمع بتزويد المدارس والمكتبات بالكتب والوثائق الضرورية .

ومهما كان الامر فان ادخال الطباعة العربية بالمشرق كان علامة بارزة فى تاريخ هاته المنطقة حيث تدل على بداية تفتح المجتمع العثمانى على العالم الغربى باستعمال مكتشفاته وعلومه ولكن ذلك لم يساهم فى نشر العلوم الحديثة ولا فى انتقال الآراء الجديدة بين مختلف الطوائف بل كانت القطيعة واضحة . وبالرغم من بداية تعود المثقفين على استعمال الكتاب المطبوع وعودة الرغبة فى القراءة بفضل هذا الشكل الجديد من أوعية الكتابة فان المخطوط بقي سيد الموقف حتى منتصف القرن التاسع عشر ومن هنا فقد كان بقاؤه رمزا لتواصل الاسلوب الحضارى القديم حتى عصر النهضة ·

هذا ملخص البحث الذى قدمناه باللغة الفرنسية .

والله ولي التوفيق